

الإشارات إلى إعجاز القرآن قبل التصنيف فيه

لقد كان النص القرآني مدارَ حركةٍ علميةٍ واسعةٍ شملت التصنيف في جميع المسائل التي تتصل باللغة. وكان لعلماء اللغة جهد مميز في هذا الميدان. فقد وجدوا أن بالمسلمين حاجةً إلى توضيح الجوانب الغامضة في النص المقدس ليسهل عليهم فهم المعاني والألفاظ واستنباط الأحكام وبيان وجوه الأعجاز. لذا فقد ترك لنا علماء اللغة طائفة من المصنفات اهتمت بالجوانب البلاغية واللغوية ومسائل الأعجاز ابتداءً من منتصف القرن الثاني الهجري، فوصلت إلينا مصنفات أبي عبيدة والآخرش والكسائي والفراء والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم. وقد عنيت هذه المصنفات ببيان معاني القرآن وبيان ما أشكل منه. ولو أردنا أن نقف عند الأسباب التي دعت العلماء إلى التأليف في هذا الاتجاه لوجدنا أنها تتصل بالجانب البلاغي والأعجازي.

فالسبب الذي دعا أبا عبيدة (ت ٢١٠هـ) إلى تأليف كتابه (مجاز القرآن) هو تفسير ألفاظ القرآن التي يتوهم الناس في فهمها ومعرفتها، فقد سئل يوماً عن قوله تعالى [طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ] (١)، فقيل له: (إنما يقع الوعد والوعيد بما عُرف مثله وهذا لم يُعرف) فقال أبو عبيدة: (إنما كَلَّمَ الله تعالى العربَ على قدر كلامهم) (٢)، واستشهد بقول أمريء القيس (٣):

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ

أما الذي دفع الآخرش (ت ٢١٥هـ) إلى تأليف كتابه (معاني القرآن) فهو بعد أن تعرّف على الكسائي (ت ١٨٩هـ) في بغداد طلب منه أن يؤدّب أولاده، قال الآخرش: (سألني أن أولف كتاباً في معاني القرآن، فجعله إماماً لنفسه، وعمل عليه كتاباً في المعاني وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما) (٤).

وأما السبب الذي دعا الفراء (ت ٢٠٧هـ) في تأليف (معاني القرآن) ما قاله ثعلب: (وكان السبب في إملاء الفراء كتابه في القرآن ... أن عمر بن بكر، وكان من أصحابه، وكان مع الحسن ابن سهل فكتب إليه:

إن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني جواب عنها، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً أو تجعل في ذلك كتاباً نرجع إليه ففعلت) (٥).

وكان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) قد صنّف كتابه (نظم القرآن) (٦) في الاحتجاج للقرآن ومعارضاً كل طعان ممن زعم أن القرآن مخلوق وليس تأليفه بحجة (٧).

(١) سورة الصافات / الآية ٦٥.

(٢) ياقوت الحموي / معجم الأدباء: ٢٠ / ١٥٨.

(٣) ظ: شرح ديوان أمريء القيس: ١٢٦.

(٤) الزبيدي / طبقات النحويين اللغويين: ٧٠، ظ: السيوطي / بغية الوعاة: ١ / ٥٩٠. وإنما قدمت أبا عبيدة والآخرش على

الفراء بسبب سبقهما له في تأليف كتابيهما (مجاز القرآن ومعاني القرآن). ظ: د. عبد الكاظم الياسري / كتب معاني

القرآن حتى نهاية القرن الثالث الهجري: ٤٩، د. عمر ملا حويش / تطور دراسات القرآن: ١١٧.

(٥) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين: ١٣٢.

وقد تبع الجاحظ في ذلك تلميذه ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) فألف كتابه (تأويل مشكل القرآن) للرد على الطاعنين فقال: (وقد أعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا [مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ] ^(٨) بإفهام كليلة وأبصار عليلة ونظر مدخولٍ فحرّفوا الكلام عن مواضعه وعدلوا عن سبله ^(٩)).

نلاحظ مما سبق أن الذي دفع هذه الثلة من العلماء إلى التصنيف والتأليف في القرآن الكريم كان الدفاع عنه والاحتجاج له وردّ طعن الطاعنين وكيد الكائدين عليه فضلاً عن الكشف عن معانيه سواء كان بمنهج نحوي أم لغوي أم بلاغي.

وفي ضوء ما تقدّم يمكن القول إن الإشارات إلى أعجاز القرآن قد اتخذت عدة مسارات ومناهج، فالنحوي مثل الكسائي والفراء جعل من اللغة وسيلة لبيان معاني القرآن وأوجه أعرابه، واللغوي كأبي عبيدة جعل اللغة أساساً لبيان هذه المعاني من خلال تفسير غريب الألفاظ وتحولاتها بين الجمع والأفراد والتقديم والتأخير وغيرها، واتخذ الجاحظ منهجاً بيانياً في بيان نظم القرآن وأعجازه، وسلك ابن قتيبة السبيل نفسه عندما جعل من الفن البلاغي وسيلة لتوضيح ما أشكل فهمه وتأويله من القرآن .

وإذا تلمسنا الإشارات الأولى إلى إعجاز القرآن في هذه المصنفات المتقدّمة نجدها في سبب تأليف أبي عبيدة كتابه (مجاز القرآن) إذ أراد من خلاله بيان الأساليب اللغوية التي سلكها القرآن الكريم والإفادة منها في بيان المعاني والدلالات مع الإشارة إلى أنه منزل بلغة العرب وليس فيه خروج على أساليبها، لكنهم عجزوا عنه حين تحداهم، وهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن.

فقول أبي عبيدة (إنما كَلَّمَ اللهُ تعالى العرب على قدر كلامهم) ^(١٠) فيه إشارة مهمة إلى عجز العرب عن معارضة القرآن وقد نزل بلغتهم وكانت اللغة بضاعتهم، فهم أهل الفصاحة والبيان، وقد تحداهم به في أن يأتوا بمثله فعجزوا ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، ثم أنه أكد أن كل ما جاء في القرآن من لفظٍ فهو عربي فصيح مبین، قال: (نزل القرآن بلسان عربي مبين، فَمَنْ زعم فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن طه) بالنبطية فقد اكبر، وأن لم يعلم ما هو فهو افتتاح كلام وهو أسم للسورة وشعار لها) ^(١١).

(٦) فقد ولم يصل ألينا. ظ: صبحي صالح / دراسات في علوم القرآن: ٣١٤، وذكر في الفهرست لأبن النديم: ٥٧ وفي أعجاز

القرآن للباقلاني: ٦، ٢٤٨.

(٧) ظ: رسائل الجاحظ: ٣ / ٢٨٧.

(٨) سورة آل عمران / الآية ٧.

(٩) ابن قتيبة / تأويل مشكل القرآن: ٢٣.

(١٠) ياقوت الحمدي / معجم الأدباء: ٢٠ / ١٥٨.

(١١) أبو عبيدة / مجاز القرآن: ١ / ١٧.

فانتفاء كل اللفظ القرآني إلى العربية يشكل إشارة مهمة من إشارات إعجاز القرآن أكدها أبو عبيدة في صدر كتابه، فضلاً عن السبب الذي دعاه إلى تأليفه وكذلك اتساق كل ألفاظه وجمله مع ما كانت عليه العرب في أساليب كلامها.

ويمكن أن نجد مثل ذلك عند الفراء (ت ٢٠٧هـ) إذ نجد إشارات فيها دلالة على الإعجاز من خلال نظم القرآن المعتمد على الحذف والاضمار أو تعدد القراءات للفظ الواحد، أو تعدد وجوه الأعراب التي يكون من نتائجها تعدد في المعنى، وهذا مما ييسر على الناس فهم القرآن والعمل بأحكامه، ففي قوله تعالى: [اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا]^(١٢)، قال الفراء: (فَضْرِبْ فَانْفَجَرَتْ، تُعْرَفُ بِقَوْلِهِ (فَانْفَجَرَتْ) أَنَّهُ قَدْ ضْرِبَ، فَانْفَجَرَتْ بِالجَوَابِ لِأَنَّهُ قَدْ أَدَى عَنِ الْمَعْنَى، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ [اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ]^(١٣) وَمِثْلَهُ فِي الْكَلَامِ أَنْ تَقُولَ: أَنَا الَّذِي أَمْرُتُكَ بِالتَّجَارَةِ، فَانْتَسَبَتِ الْأَمْوَالُ، فَالْمَعْنَى فَتَجَرَّتْ فَانْتَسَبَتْ)^(١٤)، فالإشارة هنا واضحة إلى نظم القرآن المعتمد على الحذف والاختصار دون الإطالة مع كثافة المعنى وتوفره وعدم الحاجة إلى الجهد للكشف عنه.

أما قوله تعالى: [فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَيَّ غَضَبًا]^(١٥)، قال الفراء: (وقوله "بِعَضْبٍ عَلَيَّ غَضَبًا" أن الله غضب على اليهود في قولهم [يَا اللَّهُ مَغْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيهِمْ]^(١٦) ثم غضب عليهم في تكذيب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حين دخل المدينة فذلك قوله [فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَيَّ غَضَبًا]^(١٧)).

فقد جمع القرآن هذه المعاني الكثيرة بهذه الألفاظ القليلة، فكأنه يريد أن يوضح قدرة اللفظ القرآني في استيعاب المعاني الكثيرة، وأنه يُطَنَّبُ في مواضع الاطناب، ويختصر في مواضع الاختصار.

فهذه إشارات نجدها عند الفراء تشير إلى تفرّد القرآن في أسلوبه عن كلام العرب الذين عجزوا عن الإتيان بمثله.

بيد أن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) قد صرح بأن القرآن معجزٌ بنظمه فقال: (ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدةً طويلةً أو قصيرةً على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه، لما قدر عليه ولو استعان بجميع قحطان ومعدي بن عدنان)^(١٨) إذ أكد هذا المعنى في كتابه (نظم القرآن)^(١٩).

(١٢) سورة البقرة / الآية ٦٠.

(١٣) سورة الشعراء / الآية ٦٣.

(١٤) الفراء / معاني القرآن: ١ / ٤٠ - ٤١.

(١٥) سورة البقرة / الآية ٩٠.

(١٦) سورة المائدة / الآية ٦٤.

(١٧) الفراء / معاني القرآن: ١ / ٦٠.

(١٨) رسائل الجاحظ: ٣ / ٢٢٩، ٢٨٧.

(١٩) ظ: الجاحظ / الحيوان: ٣ / ٨٦.

أما تلميذه ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) فقد أشار بعبارة واضحة جلية إلى إعجاز القرآن ونكوص العرب عن الإتيان بمثله بعد أن قدّم لمعجزة نبي الله موسى (عليه السلام) وعيسى (عليه السلام) فقال: (وكان لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الكتاب الذي لو اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، إلى سائر زمن البيان)^(٢٠) فضلاً عن ذلك فإنه في باب الرد على الطاعنين يؤكد إعجاز القرآن بعجيب نظمه وحسن تأليفه، فقال: (وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبأنه بعجيب النظم عن جيل المتكلفين، وجعله متلوّاً لا يملّ على طول التلاوة، ومسموعاً لا تمجّه الأذان وغضاً لا يخلُق على كثرة الرد، وعجيباً)^(٢١).

ثم نجد المبرد (ت ٢٨٥هـ) قد قارن بين نظم القرآن ونظم الشعر^(٢٢) ليدلنا على علو كعب بلاغة القرآن وتأخر الشعر في نظمه عنها، فهو يقارن بين قول مروان بن أبي حفصة^(٢٣):

زوامل للأشعار لا علم عندهم
لعمرك ما يدري البعير إذا عدا
بجيدها إلا كعلم الأباغر
بأوساقه أرواح ما في الغرائر

وبين قوله تعالى: [مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا]^(٢٤) وكذلك يقارن بين قول الخنساء وهي ترثي أخاها صخر^(٢٥):

ولو لا كثرة الباكين حولي
وما يبكون مثل أخي ولكن
على اخوانهم لقتلت نفسي
أعزّي النفس عنه بالتأسي

وبين قوله تعالى للمشركين: [وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ]^(٢٦) أي ما نزل ينفع بكم أجلّ من أن يقع معه التأسي ونظرٌ بعض إلى بعض^(٢٧).

(٢٠) ابن قتيبة / تأويل مشكل القرآن: ١٧.

(٢١) م. ن: ١١.

(٢٢) ظ / المبرد / البلاغة: ٦٦ - ٦٧.

(٢٣) ظ: ابن عبد ربه /؟؟ العقد الفريد: ٢ / ٤٨٤.

(٢٤) سورة الجمعة / الآية ٥.

(٢٥) ديوان الخنساء: ٨٤ - ٨٥.

(٢٦) سورة الزخرف / الآية ٣٩.

(٢٧) ظ: المبرد / البلاغة: ٦٧.

ويعقد المبرد أيضاً مقارنة بين قوله تعالى: [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ]^(٢٨) وبين قول ارد شير بابك في عهده: (وقد قال الأولون منا: القتل أقل للقتل)^(٢٩). ليبين أن كلام الله أبلغ في أداء المعنى، وأن أي كلام بشري لا يدانيه في الحسن والجمال وقوة التعبير عن المعنى.

أن هذه المقارنات التي عقدها المبرد بين القرآن والشعر هي ذاتها قد أستعملها العلماء من بعده في التذليل على إعجاز القرآن كالباقلائي (ت ٤٠٣ هـ) في كتابه (إعجاز القرآن)^(٣٠).

فهي إذن تمثل إشارة مهمة من إشارات الإعجاز أوردها المبرد دون أن يشير إلى مسألة الإعجاز، بيد أنها توحى إلى ذلك وتشير إليه، وذلك انه عندما يعقد المقارنة بين كلام البشر وكلام الله تعالى يقول: (فهيهات هذا من قول الله تعالى)^(٣١).

وهذه الإشارات التي تحدتث عنها تمثل اتجاه النظم والتأليف في إعجاز القرآن، بيد أن هناك إشارات تمثل اتجاهاً معاكساً للاتجاه الأول، وذلك انه لا يعدّ البلاغة والنظم سبيل الإعجاز في القرآن، وأن الخلق قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن لكن الله صرف همهم وسلب منهم العلوم فأقعدهم عن معارضته، وهو ما يسمى بالصرفة.

إن أول من قال من العلماء بالصرفة أبو إسحاق النظام (ت ٢٢١ هـ) عندما زعم: (إن نظم القرآن وتأليفه ليسا بحجة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن الخلق يقدرون على مثله)^(٣٢)، وقد تبعه في ذلك أبو موسى المردار (ت ٢٢٦ هـ)، حيث أنفرد عن أستاذه بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) بذلك^(٣٣)، وهذا مما يدل على أن بشراً كان يقول بأعجاز القرآن من جهة نظمه وتأليفه.

ثم أنا قد علمنا من قبل^(٣٤) أن الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) يزعم أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه غير أنني قد وجدته في مواضع أخرى يميل إلى الصرفة مقترناً بالنظم، يقول الجاحظ: (ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه، ولذلك لم تجد أحداً طمع فيه)^(٣٥).

(٢٨) سورة البقرة / الآية ١٧٩.

(٢٩) ظ: المبرد / البلاغة: ٦٧.

(٣٠) ظ: الباقلائي / أعجاز القرآن: ١٥٨- ٢٤٥.

(٣١) المبرد / البلاغة: ٦٧.

(٣٢) الخياط / كتاب الانتصار: ٢٨.

(٣٣) ظ: الشهرستاني / الملل والنحل: ١ / ٣٥، البغدادي / الفرق بين الفرق: ١٥١.

(٣٤) ظ / ص ٨ من البحث؟؟.

(٣٥) الجاحظ / الحيوان: ٤ / ٨٩.

فهو يقرر عجز العرب عن معارضة القرآن بسبب مَنْ صرف نفوسهم عن ذلك بعد أن تحداهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ببلاغة القرآن, فهو لم يقل بالصرفة المطلقة في الإعجاز ولا بالنظم والتأليف الخالص, مما يشكلّ ميلاً عن رأيه الأول في إعجاز القرآن بنظمه وتأليفه إلى الصرفة^(٣٦).

إن ما تقدم يمثل إشاراتٍ تدل على إعجاز القرآن وقد فتحت الباب على مصراعيه في التصنيف والكتابة في هذا الموضوع سواء كانت من جهة النظم أم الصرفة, تأليفاً خالصاً^(٣٧) أم على سبيل التنويه منتشرة في مصنفات المؤلفين ممن لم يتناولوا هذا الموضوع على وجه الخصوص وإنما عبّروا عنه تارة بالاعتراض على المصنفين فيه وتارة أخرى تجده مبنوئاً ضمن علوم القرآن كما فعل الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ), وأبو صلاح الحلبي (ت ٤٤٧ هـ), وابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ), والشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ), وابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) وغيرهم^(٣٨).

(٣٦) ظ / د. عمر ملا حويش / تطور دراسات إعجاز القرآن: ٢٥٥ – ٢٦٢.

(٣٧) نحو كتاب النكت في إعجاز القرآن للرماني, البيان في إعجاز القرآن للخطابي, إعجاز القرآن للباقلاني, الموضح عن جهة إعجاز القرآن للشريف المرتضى, ودلائل الإعجاز للجرجاني.

(٣٨) ظ: المرتضى / الموضح عن جهة أعجاز القرآن – التقديم: ١٩ – ٢١.

